

فَضْلٌ

تكريم الإسلام للمسيح عبد الله ورسوله

قَالُوا: وَلِمَا تَقَدَّمَ بِهِ الْقَوْلُ لِأَنَّهُ غَيْرُ لَاتِقٍ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ أَنْ تُهْمَلَ رُوحَ الْقُدْسِ وَكَلِمَةَ اللَّهِ الَّذِي شَهِدَهُمَا فِي هَذَا الْكِتَابِ بِالْعِظَائِمِ، فَقَالَ عَنْ كَلِمَةِ اللَّهِ: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ، قَبْلَ مَوْتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

وَالجَوَابُ:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْ مُحَمَّدًا ﷺ بِإِهْمَالٍ مَا يَجِبُ مِنْ حَقِّ الْمَسِيحِ ﷺ، بَلْ أَمَرَهُ بِالِإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ، كَمَا أَمَرَهُ بِالِإِيمَانِ بِمُوسَى وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَكَمَا أَمَرَ الْمَسِيحَ بِالِإِيمَانِ بِمُوسَى وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَلَكِنَّهُ أَمَرَ بِإِهْمَالِ مَا ابْتَدَعَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ الْمَسِيحِ ﷺ، وَمَا نَسَخَهُ اللَّهُ مِنْ شَرْعِهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيُهْمَلُ الْمُبَدَّلُ وَالْمَنْسُوخُ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ الْمَسِيحَ أَنْ يُهْمَلَ مَا ابْتَدَعْتَهُ الْيَهُودُ مِنَ الدِّينِ الَّذِي لَمْ يَشْرَعْهُ، وَمَا نَسَخَهُ مِنْ شَرْعِ مُوسَى.

فَكَمَا أَمَرَ الْمَسِيحَ أَنْ يُهْمَلَ الْمُبَدَّلُ وَالْمَنْسُوخُ مِنَ التَّوْرَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِهْمَالٌ لِمَا يَجِبُ مِنْ حَقِّ التَّوْرَةِ وَمُوسَى ﷺ، فَكَذَلِكَ إِذَا أُهْمِلَ الْمُبَدَّلُ وَالْمَنْسُوخُ مِنْ دِينِ أَهْلِ الْإِنْجِيلِ، لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِهْمَالٌ لِمَا يَجِبُ مِنْ حَقِّ الْإِنْجِيلِ وَالْمَسِيحِ، بَلْ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ، وَأَنْ لَا نُفَرِّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ كَمَا قَالَ الْعَالِيُّ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وَالنَّصَارَى كَالْيَهُودِ، آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، فَأَيُّمَا هُوَ اللَّائِقُ عِنْدَ أُولِي الْأَلْبَابِ،
 أَنْ نُؤْمِنَ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، أَوْ نُؤْمِنَ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرَ بِبَعْضٍ وَأَيُّمَا هُوَ اللَّائِقُ عِنْدَ أُولِي
 الْأَلْبَابِ أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَنَعْبُدُهُ بِمَا شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، أَوْ
 نَبْتَدِعَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْعِبَادَاتِ الْمُبْتَدَعَةِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ اللَّهُ كِتَابًا وَلَا بَعَثَ بِهِ رَسُولًا وَنُضَاهِي
 الْمَشْرِكِينَ عِبَادَ الْأَوْثَانِ؟

قَالَ النَّجَالِيُّ: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قُلْنَا لَهُمُ اللَّهُ أَنْفُ يُؤَفَّكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وَقَالَ النَّجَالِيُّ: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فَالْمُسْلِمُونَ لَمْ يَهْمِلُوا رُوحَ الْقُدْسِ، وَكَلِمَةَ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ النَّجَالِيُّ عَنْ كَلِمَةِ اللَّهِ: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء: ١٥٩].

بَلْ هُمْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا دِينَهُ وَدِينَ الرُّسُلِ قَبْلَهُ فَإِنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَمِيعُهُمْ
 وَاحِدٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا
 وَاحِدٌ» (١).

وَقَدْ قَالَ النَّجَالِيُّ: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [التوبة: ١٣].

(١) أخرجه أحمد (٤٣٧/٢ و ٤٨٢) والبخاري [٣٤٤٣] ومسلم [٢٣٦٥] وابن حبان [٦١٩٤] والبعغوي [٣٦١٩] وغيرهم عن أبي هريرة.

فَدَيْنُ الْمُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ دِينٌ وَاحِدٌ، وَيَتَنَوَّعُ شَرُّعُهُمْ وَمَنَاهِجُهُمْ كَتَنَوَّعِ شَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْوَاحِدِ، فَإِنَّ دِينَ الْمَسِيحِ هُوَ دِينُ مُوسَى، وَهُوَ دِينُ الْحَلِيلِ قَبْلُهَا، وَدِينُ مُحَمَّدٍ بَعْدَهُمَا، مَعَ أَنَّ الْمَسِيحَ كَانَ عَلَى شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ ثُمَّ نَسَخَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ مَا نَسَخَ مِنْهَا وَهُوَ قَبْلَ النَّسْخِ وَبَعْدَهُ دِينُهُ دِينُ مُوسَى وَلَمْ يَهْمَلْ دِينَ مُوسَى.

كَذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ هُمْ عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ وَسَائِرِ الرُّسُلِ وَهُمْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْمَسِيحَ وَهَذَا جَعَلَهُمُ اللَّهُ فَوْقَ النَّصَارَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَالنَّصَارَى الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَ الْمَسِيحِ وَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ بَرِيثُونَ مِنْ دِينِ الْمَسِيحِ وَالْمَسِيحُ بَرِيءٌ مِنْهُمْ، كِبْرَاءَةٌ مُوسَى يَمِّنُ بَدَلًا وَغَيْرَ دِينِهِ وَكَذَّبَ الْمَسِيحَ.

وَالْمُسْلِمُونَ أَشَدُّ تَعْظِيمًا لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتِّبَاعًا لَهُ بِالْحَقِّ يَمِّنُ بَدَلًا دِينَهُ وَخَالَفَهُ مِنَ النَّصَارَى، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ يُصَدِّقُونَهُ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَلَا يُحَرِّفُونَ مَا قَالَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يُفَسِّرُونَ كَلَامَهُ بِغَيْرِ مُرَادِهِ، وَكَلَامَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَمَا فَعَلَتِ النَّصَارَى، فَإِنَّهُمْ نَقَلُوا عَنِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَالَ عَمَّدُوا النَّاسَ بِاسْمِ الْأَبِ وَالْإِبْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ، وَهَذَا إِذَا قَالَهُ الْمَسِيحُ فَإِنَّهُ يُفَسَّرُ بِلُغَتِهِ وَعَادَتِهِ فِي خَطَابِهِ وَعَادَةِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، (وَلَيْسَ فِي كَلَامِ الْمَسِيحِ وَلَا فِي كَلَامِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا كَلَامِ غَيْرِهِمْ أَنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ) الْقَائِمَةَ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تُسَمَّى ابْنًا، وَلَا رُوحَ قُدُسٍ، وَلَا تُسَمَّى صِفَتُهُ الْقَدِيمَةُ ابْنًا، وَلَا رُوحَ قُدُسٍ، وَلَا يُوجَدُ قَطُّ فِي كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ اسْمُ الْإِبْنِ وَاقِعًا إِلَّا عَلَى مَخْلُوقٍ.

وَالْمُرَادُ فِي تِلْكَ اللَّغَةِ أَنَّهُ مُصْطَفَى مَحْبُوبٌ لِلَّهِ، كَمَا يَقُولُونَ أَنَّهُ قَالَ لِإِسْرَائِيلَ: (أَنْتَ ابْنِي بِكْرِي)، وَلِدَاوُدَ (أَنْتَ ابْنِي وَحَبِيبِي)، وَأَنَّ الْمَسِيحَ قَالَ لِلْحَوَارِيِّينَ (أَبِي وَأَبِيكُمْ)، فَجَعَلَهُ أَبًا لِلْجَمِيعِ، وَهُمْ كُلُّهُمْ مَخْلُوقُونَ فَيَكُونُ اسْمُ الْإِبْنِ وَاقِعًا عَلَى الْمَسِيحِ الَّذِي هُوَ نَاسُوتٌ مَخْلُوقٌ، فَعَمَدَ هُوَ لِأَنَّ الضَّلَالَ فَجَعَلُوا اسْمَ الْإِبْنِ وَاقِعًا عَلَى اللَّاهُوتِ، قَدِيمٌ أَرْزِيٌّ مَوْلُودٌ غَيْرٌ مَخْلُوقٌ.

وَزَعَمُوا أَنَّ الْإِبْنَ يُرَادُ بِهِ الْإِبْنُ بِالْوَضْعِ، وَهُوَ الْمَخْلُوقُ، وَهُوَ الْإِبْنُ بِالِطَّبْعِ، وَهُوَ الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ الْمَوْلُودُ غَيْرَ الْمَخْلُوقِ، وَهَذَا التَّفْرِيقُ هُمْ أَحَدُتُوهُ وَابْتَدَعُوهُ وَلَا يُوجَدُ قَطُّ فِي كَلَامِ الْمَسِيحِ وَلَا غَيْرِهِ أَنَّهُ سَمِيَ الْقَدِيمَ الْأَزَلِيَّ ابْنًا، وَلَا جَعَلَ لَهُ ابْنًا قَدِيمًا مَوْلُودًا غَيْرَ مَخْلُوقٍ، وَلَا سَمَى شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ قَطُّ ابْنًا.

وَكَذَلِكَ لَفْظُ رُوحِ الْقُدُسِ مَوْجُودٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَا يُرَادُ بِهِدَا قَطُّ حَيَاةُ اللَّهِ وَلَا صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِهِ.

وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ مَا أَيْدَى اللَّهُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ، وَيَجْعَلُهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ هُدَاهُ وَتُورِهِ وَوَحْيِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَمَا يَنْزِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَهَذَا الَّذِي تُسَمِّيهِ الْأَنْبِيَاءُ رُوحَ الْقُدُسِ لَمْ يَخْتَصَّ بِهِ الْمَسِيحُ، بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، بَلْ قَدْ أَنْزَلَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُتُبِهِمْ: إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ كَانَتْ فِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ، وَكَانَتْ أَيْضًا عِنْدَهُمْ فِي الْحَوَارِيِّينَ.

وَهَكَذَا خَاتَمَ الرَّسُلِ، كَانَ يَقُولُ لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ: إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ مَا دُمْتَ تُدَافِعُ عَنْ نَبِيِّهِ، وَيَقُولُ اللَّهُمَّ أَيْدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ.

وَكَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فَرُوحُ الْقُدُسِ لَا اخْتِصَاصَ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَا، بَلْ مَا يُفَسَّرُ بِهِ اسْمُ الْإِبْنِ وَاسْمُ رُوحِ الْقُدُسِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا وُصِفَ بِهِ الْمَسِيحُ فَهُوَ مُشْتَرِكٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ الرَّسُلِ، وَإِذَا فَسَّرُوا الْخُلُولَ بِظُهُورِ نُورِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَهُدَاهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ فَهَذَا حَقٌّ وَهُوَ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ الْمَسِيحِ وَغَيْرِهِ.

فَأَمَّا نَفْسُ ذَاتِ اللَّهِ فَلَمْ تَحِلَّ فِي أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ .

وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ شَهَادَتِهِمْ لِلْمَسِيحِ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مُؤَيَّدٌ مَنْصُورٌ
عَصَمَهُ اللَّهُ مِنْ أَعْدَائِهِ وَطَهَّرَهُ مِنْهُمْ، وَلَمْ يُسَلِّطْهُمْ عَلَيْهِ .

وَالنَّصَارَى يَدَّعُونَ أَنَّ اسْمَ الْمَسِيحِ اسْمُ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ وَأَنَّهُ إِلَهٌ تَامٌّ وَإِنْسَانٌ
تَامٌّ، وَهَذَا يَمْتَنِعُ شَرْعًا وَعَقْلًا ثُمَّ يَصِفُونَهُ بِالصِّفَاتِ الْمُتَنَاقِضَةِ، يَصِفُونَهُ بِأَنَّ طَائِفَةً مِنْ
أَشْرَارِ الْيَهُودِ وَضَعُوا الشُّوكَ عَلَى رَأْسِهِ وَبَصَقُوا فِي وَجْهِهِ، وَأَهَانُوهُ وَصَلَبُوهُ وَفَعَلُوا بِهِ مَا
لَا يُفَعَّلُ بِأَخْسِ النَّاسِ، وَيَقُولُونَ مَعَ هَذَا: إِنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .



فَضْلٌ

نسخ شرع التوراة وأن ما جاء به المسيح حق

قَالُوا: ثُمَّ شَهِدَ لِقَرَابِينَا وَذَبَائِحِنَا أَمَّا مُقَدَّسَةٌ مَقْبُولَةٌ لَدَى اللَّهِ مِنْ كُتُبِ الْيَهُودِ الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ يَوْمَنَا هَذَا الْمُنَزَّلَةِ مِنَ اللَّهِ عَلَى أَفْوَاهِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ.

قَالَ أَشْعِيَا: (قَالَ اللَّهُ: إِنِّي أَعْرِفُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلُوبَهُمُ الْقَاسِيَةَ الْحَبِيثَةَ فَإِذَا أَنَا ظَهَرْتُ إِلَى الْأُمَّمِ فَانظُرُوا إِلَى كَرَامَتِي أُقِيمُ مِنْهَا أَنْبِيَاءَ وَأَبْعَثُ مِنْهُمْ مُخْلِصِينَ يُخَلِّصُونَ الْأُمَّمَ مِنَ الْبُلْدَانِ الْقَاصِيَةِ الَّذِينَ لَمْ يَسْمَعُوا بِسَمَاعِي، وَلَمْ يَعْرِفُوا مِنْ قَبْلِ كَرَامَتِي، وَيَكُونُ اسْمِي فِيهِمْ، وَيَجْلِبُونَ إِخْوَتَهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ كُلِّهَا، وَيُجِيبُونَ قَرَابِينَ اللَّهِ عَلَى الدَّوَابِّ وَالْمَرَاجِبِ إِلَى جَبَلِ قُدْسِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيَقْرَبُونَ لِي الْقَرَابِينَ بِالسَّمِيدِ، كَمَا كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْلُ وَكَذَلِكَ بَاقِي الْأُمَّمِ وَتَقْرَبُ الْقَرَابِينَ بَيْنَ يَدَيَّ، فَهُمْ وَزَرَعُهُمْ إِلَى الْأَبَدِ، وَيُحْجُونَ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَفِي كُلِّ شَهْرٍ، وَمِنْ سَنَةٍ إِلَى سَنَةٍ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، بَيْتِ اللَّهِ وَيَقْرَبُونَ اللَّهَ رَبَّهُمْ فِيهِ قَرَابِينَ زَكِيَّةَ نَفِيَّةً، يَنْظُرُونَ إِلَى الْأُمَّةِ الْحَبِيثَةِ الْمَارِدَةِ: بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَا يَبْلَى حُزْنُهَا وَلَا يَنْقَطِعُ، بَلَاؤُهَا إِلَى الْأَبَدِ).

وَقَالَ دَانِيَالُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَسَيَأْتِي عَلَى شَعْبِكَ وَقَرِيَّةِ قُدْسِكَ سَبْعُونَ سَابُوعًا، وَتَنْقُضِي الذُّنُوبَ، وَتَغْفِرُ الْخَطَايَا وَغُفْرَانَ الْأَسْمِ، وَيُؤْتِي بِالْحَقِّ الَّذِي لَمْ يَنْزِلْ مِنْ قَبْلُ، وَتَتِمُّ نُبُوءَاتُ الْأَنْبِيَاءِ وَكُتُبُ الرُّسُلِ، وَتَبِيدُ قَرِيَّةَ الْقُدْسِ وَتُحْرَبُ مَعَ مَجِيءِ الْمَسِيحِ، وَيَفْنَى الْمِيثَاقَ الْعَتِيقُ مِنَ النَّاسِ، وَمِنْ بَعْدِ أُسْبُوعٍ وَنِصْفٍ تَبْطُلُ ذَبَائِحُ الْيَهُودِ وَقَرَابِينُهُمْ، وَنَصِيرٌ عَلَى كَفِّ النَّجَاسَةِ وَالْفَسَادِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ).

وَقَالَ مِيخَا^(١) النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (قَالَ اللَّهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِذَا أَتَى الْمَسِيحُ يَدْعُو الْأُمَّمَ الْمُبَدَّدَةَ، وَيَضَعُهُمْ شَعْبًا وَاحِدًا، وَيُبْطِلُ قِتَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَسَلَاحَهُمْ وَقَرَابِينَهُمْ إِلَى الْأَبَدِ)^(٢).

وَقَالَ عَامُوصُ^(٣) النَّبِيُّ: (لَا تَذْبَحُوا الْعُجُولَ بَعْدُ فَإِنَّ الرَّبَّ سَيَأْتِي صَهْيُونَ وَيُحْدِثُ وَصِيَّةً جَدِيدَةً طَاهِرَةً مِنَ الْخُبْزِ النَّقِيِّ وَالْخَمْرِ الزَّكِيِّ وَيَصِيرُ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَطْرُودِينَ).

وَالْجَوَابُ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا - أَنَّ مَا يَحْتَجُونَ بِهِ مِنَ النَّقْلِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى أَرْبَعِ مُقَدِّمَاتٍ: إِلَى أَنْ تُعْلَمَ نُبُوَّةُ الْمُنْقُولِ عَنْهُ، وَإِلَى أَنْ يُعْلَمَ لَفْظُهُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ، وَإِلَى أَنْ يُعْلَمَ مَا ذَكَرُوهُ تَرْجَمَةً صَحِيحَةً عِنْدَهُ، فَإِنَّ أَوْلَئِكَ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِالْعَرَبِيَّةِ، بَلْ وَلَا بِالرُّومِيَّةِ وَالسُّرْيَانِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمُوا بِالْعَبْرِيَّةِ، كَالْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) ميخا النبي: سادس الأنبياء الصغار ويسمى المورشتي من مسقط رأسه مورشة قرية بقرب جت تنبأ في ملك يوثام وأحاز وحزقيا ملوك يهوذا (٧٥١-٦٩٣ ق.م)، وكان معاصر الأشعيا الذي يشبهه في أسلوبه ونهج كتابته وله سفر في العهد القديم.

(٢) في سفر ميخا - الإصحاح الرابع (٢) - لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب فيقضي بين شعوب كثيرين ينصف الأمم قوة بعيدة فيطبعون سيوفهم سكاكاً ورماحهم مناجل لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيها بعد بل يجلسون كل واحد تحت كرمته وتينته ولا يكون من يرعب لأن فم رب الجنود تكلم لأن جميع الشعوب يسلكون كل واحد باسم إله ونحن نسلك باسم الرب إلهنا إلى الدهر والأبد، في ذلك اليوم يقول الرب: أجمع الظالعة وأضمم المطرودة والتي أضررت بها وأجعل الظالعة بقية والمعصاة أمة قوية ويملك الرب عليهم في جبل صهيون من الآن إلى الأبد) بمعناه.

(٣) في سفر عاموس - الإصحاح السادس (٤) - المضطجعون على أسرة من العاج والتمددون على فرشهم والأكلون خرفاً من الغنم وعجولاً من وسط الصيرة المهاذرون مع صوت الرباب المخترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود الشاربون من كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان ولا يغمتمون على انسحاق يوسف لذلك الآن يسبون في أول المسيبين ويزول صياح المتمددين) النص بمعناه.

وَالرَّابِعُ- أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ دَلِيلٌ عَلَى مَا ادَّعَوْهُ مِنْ قَبُولِ قَرَايِنِهِمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَنَحْنُ فِي هَذَا الْمَقَامِ نَقْتَصِرُ عَلَى مُنَازَعَتِهِمْ فِي هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ، فَلَيْسَ فِيهَا ذَكَرُوهُ دَلِيلٌ عَلَى مَدْحِ قَرَايِنِهِمْ وَذَبَائِحِهِمْ بَعْدَ التَّبْدِيلِ وَالنَّسْخِ، وَلَكِنَّ غَايَتَهَا أَنْ يَدُلَّ عَلَى مَدْحِهَا قَبْلَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ، وَهَذَا مِمَّا لَا يُنَازَعُ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ.

الْوَجْهُ الثَّانِي- أَنَّ هَذِهِ النُّعُوتَ الْمَذْكُورَةَ عَنْ «أَشْعِيَا» وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَا تُوَافِقُ مَا عَلَيْهِ النَّصَارَى، فَإِنَّ النَّصَارَى لَا يُقَرَّبُونَ الْقَرَايِنَ بِالسَّمِيدِ، كَمَا كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْلُ، وَلَا يُحْجُونَ فِي كُلِّ شَهْرٍ وَمِنْ سَنَةٍ إِلَى سَنَةٍ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ بَيْتِ اللَّهِ، وَيُقَرَّبُونَ لِلَّهِ رَبِّهِمْ فِيهِ قَرَايِنَ نَفِيَّةً زَكِيَّةً، وَإِنَّمَا يُحْجُونَ إِلَى قُبَاةِ الْحَارِجَةِ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ الَّذِي كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ تَقْصِدُهُ وَتُصَلِّي فِيهِ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِنَّمَا كَانُوا يُصَلُّونَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَيَزُورُونَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ نَفْسَهُ، وَأَمَّا قُبَاةُ فَلَيْسَ لَهَا ذِكْرٌ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بَلْ إِنَّمَا ظَهَرَتْ قُبَاةُ فِي زَمَنِ قُسْطَنْطِينَ الْمَلِكِ، لَمَّا أَظْهَرَتْهَا أُمُّهُ هِيلَانَةُ الْحَرَانِيَّةُ لَمَّا جَاءَتْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَاخْتَارَتْ مِنَ الْيَهُودِ ثَلَاثَةً، وَسَأَلَتْهُمْ أَنْ يَدُلُّوَهَا عَلَى مَوْضِعِ الصَّلِيبِ فَاْمْتَنَعُوا، فَعَاقَبَتْهُمْ بِالْحَبْسِ وَالْجُوعِ، فَدَلُّوَهَا عَلَى مَوْضِعِهِ فِي مَزْبَلَةٍ فَاسْتَخْرَجُوهُ، وَجَعَلَتْهُ فِي غِلَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَحَمَلَتْهُ، وَبَنَتْ كَنِيسَةَ الْقُبَاةِ فِي مَوْضِعِهِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ الْبَطْرِيْقِ ^(١) فِي تَارِيخِهِ، وَغَيْرُهُ، كَمَا سَيَأْتِي، وَذَلِكَ بَعْدَ الْمَسِيحِ بِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ أَظْهَرُوا الصَّلِيبَ، وَجَعَلُوا «عِيدَ الصَّلِيبِ»، وَلَمْ يَشْرَعْ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَسِيحَ وَلَا الْحَوَارِيُونَ، وَهَذَا مَذْكُورٌ فِي كُتُبِهِمْ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَائِهِمْ، كَمَا قَدْ ذُكِرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَلَا هُمْ يَأْتُونَ بِقَرَايِنَ لِلَّهِ عَلَى الدَّوَابِّ وَالْمَرَاقِبِ إِلَى جَبَلِ قُدْسِ بَيْتِ اللَّهِ الْمَقْدِسِ.

(١) هو سعيد بن البطريق المتطبب، طبيب مؤرخ نصراني - من أهل مصر وُلِدَ بالفسطاط سنة ثلاث وستين ومائتين من الهجرة النبوية، ولما بلغ الستين من عمره أقيم بطريقاً على الإسكندرية سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، وتوفي سنة ثمان وعشرين وثلثمائة من الهجرة.

الْوَجْهَ الثَّلَاثُ. أَنَّ مَا ذَكَرُوهُ عَنْ «دَائِيَال» لَا يَتَّصِفُ مَدْحَ دِينِهِمْ بَعْدَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ، وَإِنَّمَا يَتَّصِفُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَقِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ مِنْ قَبْلُ، وَهُوَ الَّذِي الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرَّسُلَ قَبْلَهُ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ وَأَنَّ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ يُحْرَبُ مَعَ مَجِيءِ الْمَسِيحِ، وَيَفْتَى الْمِيثَاقَ الْعَتِيقُ، يَعْنِي مَا نُسِخَ مِنْ شَرَعِ التَّوْرَةِ، وَأَنَّهُ يُبْطَلُ ذَبَائِحَ الْيَهُودِ وَقَرَابِينَهُمْ.

وَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى نَسْخِ شَرَعِ التَّوْرَةِ، وَبُطْلَانِ دَوْلَةِ الْيَهُودِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَسِيحَ جَاءَ بِالْحَقِّ، وَمَنْ اتَّبَعَ الْمَسِيحَ كَانَ عَلَى الْحَقِّ، وَهَذَا مِمَّا لَا يُنَازَعُ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ مُتَمَسِّكًا بِهَا أَمَرَ بِهِ الْمَسِيحُ فَإِنَّهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ وَلَكِنْ مَنْ جَاءَ بِشَرَعٍ لَمْ يَأْتِ بِهِ الْمَسِيحُ أَوْ أَرَادَ اتِّبَاعَ شَرَعِهِ بَعْدَ النَّسْخِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ نَسَخَ اللَّهُ مَا نَسَخَهُ مِنْ شَرَعِهِمْ وَأَزَالَ دَوْلَتَهُمْ وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِالنَّصَارَى لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَزَالَ دَوْلَتَهُمْ عَنْ وَسَطِ الْأَرْضِ وَخِيَارِهَا وَحَيْثُ بُعِثَتِ الْأَنْبِيَاءُ كَأَرْضِ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْجَزِيرَةِ (١)، وَالْعِرَاقِ (٢)، وَأَرْمِينِيَّةَ (٣)، وَأَذْرَبِيجَانَ (٤)، وَأَجْلَاهُمْ إِلَى طَرَفِي الْأَرْضِ مِنْ

(١) الجزيرة: يطلق عليها جزيرة أقور وهي التي بين دجلة والفرات مجاورة للشام، تشتمل على ديار مصر وديار بكر، وسميت بالجزيرة لأنها بين دجلة والفرات ولأهلها تواريخ معروفة.

(٢) العراق: ناحية مشهورة وهي من الموصل إلى عبادان طولاً ومن القادسية إلى حلوان عرضاً، بها نهر دجلة ونهر الفرات، فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنواها البصرة والكوفة التي اتخذها الخليفة علي رضي الله عنه عاصمة لحكمه.

(٣) أرمينية: هضبة في آسيا الصغرى تقع شرق تركيا وجزء منها في غرب روسيا، وهي أول دولة صارت مسيحية.

(٤) أذربيجان: إقليم يقع في الشمال الغربي من إيران وجزؤه الشمالي يعرف الآن بجمهورية أذربيجان الإسلامية ويفصل بينهما نهر أراس كان مسكوناً، ويحكمه ملوك قبل القرن الثامن قبل الميلاد، ثم أصبح ضمن الأمبراطورية الفارسية، ويقال أن زرادشت ولد هناك. فتحها المسلمون في أواخر القرن الأول الهجري السابع الميلادي.

جَهَةَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ، وَصَارَ الَّذِينَ فِي وَسَطِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحْسَنُ أحوَالِهِمْ إِذَا لَمْ يُسَلِّمُوا
أَنْ يُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرُوهُ عَنْ «مِيحَا» وَ «عَامُوسَ» إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى مَجِيءِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وَبُطْلَانِ مَا نَسَخَهُ اللَّهُ وَأَبْطَلَهُ مِنْ شَرَعِ الْيَهُودِ وَمُلْكِهِمْ وَلَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ دِينِ النَّصَارَى
الَّذِي لَمْ يَشْرَعْهُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا عَلَى صِحَّتِهِ بَعْدَ أَنْ نُسِخَ بِشَرَعِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
نَسْخًا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ نَسْخِ بَعْضِ شَرَعِ مُوسَى بِشَرَعِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

هَذَا إِذَا سَمِيَ الشَّرَعُ الْمُؤَقَّتَ بَعَايَةِ مَجْهُولَةٍ نَسَخًا، فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يُبَشِّرْ بِالثَّانِي.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْأَوَّلُ بَشَرًا بِالثَّانِي، وَكَانَتْ شَرِيعَةُ الْأَوَّلِ مُؤَقَّتَةً إِلَى مَجِيءِ الثَّانِي لَمْ يُسَمَّ
ذَلِكَ نَسْخًا، فَالْمَسِيحُ وَمُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ - لَمْ يَنْسَخَا شَيْئًا، بَلْ كَانَ شَرَعُ
مُوسَى إِلَى مَجِيءِ الْمَسِيحِ، وَشَرَعُ الْمَسِيحِ إِلَى مَجِيءِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ -.

وَأَمَّا مَا حُكِيَ عَنْ أَشْعِيَا عَنْ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: فَإِذَا ظَهَرَتْ إِلَى الْأُمَّمِ فَهَذَا قَدْ يَخْتَجُّ بِهِ
النَّصَارَى وَيَأْتِنَالِهِ مِنْ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى الْحُلُولِ الَّذِي ابْتَدَعُوهُ، وَهُوَ بَاطِلٌ فَإِنَّ
مِثْلَ هَذَا اللَّفْظِ مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَلَا يُرَادُ بِشَيْءٍ مِنْهَا حُلُولُ
ذَاتِ اللَّهِ فِي أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ، كَمَا ذُكِرَ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَعْلَنَ لِإِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ، وَأَنَّ
اللَّهَ يَأْتِي مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ، وَيُشْرِفُ مِنْ سَاعِيرَ، وَيَسْتَعْلِنُ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ.

وَمَعْلُومٌ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ الْمِلَلِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَحِلَّ فِي مُوسَى وَغَيْرِهِ لَمَّا كَلَّمَهُ،
وَلَا يَحِلُّ فِي شَيْءٍ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ مَعَ إِخْبَارِهِ أَنَّهُ اسْتَعْلَنَ مِنْهَا.

وَقَدْ قَالَ الْعَالِمِيُّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

فَظَهَرَهُ بِالْعِلْمِ وَالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ، وَأَظْهَرَهُ بِالْيَدِ وَالسَّنَانِ، كَمَا قَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿اللَّهُ نُورٌ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ
دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشُّرَى: ٣٥].

قَالَ أَبِي بِنُ كَعْبٍ وَغَيْرُهُ: مِثْلُ نُورِهِ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ.

وَقَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الْحَدِيدُ: ٢٨].

وَقَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ
وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشُّرَى: ٥٢].

وَفِي التِّرْمِذِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ
الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٧٥].
قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ (١).

وَقَدْ جَاءَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ تُضِيءُ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ كَمَا تُضِيءُ
الْكَوَاكِبُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ.

وَالْمَخْلُوقُ الَّذِي تَظْهَرُ مَحَبَّتُهُ وَذِكْرُهُ وَطَاعَتُهُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ، يُقَالُ فُلَانٌ قَدْ ظَهَرَ
فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، فَإِذَا ظَهَرَ ذَكَرَ اللَّهُ وَذَكَرُ اسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَتَوْحِيدُهُ وَأَيَاتُهُ وَعِبَادَتُهُ حَتَّى
امْتَلَأَتِ الْقُلُوبُ بِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُمْتَلِئَةً بِظُلْمَةِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ، كَانَ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ
مِنْ ظُهُورِهِ، وَهَذَا أَعْظَمُ مَا يَكُونُ فِي بَيْوتِهِ الَّتِي يُعْبَدُ فِيهَا وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ.

(١) ضعيف جداً. رواه الترمذي [٣١٢٧] وضعفه، وفي سنده عطية العوفي ضعيف مدلس. انظر:
«الضعيفة» للألباني [١٨٢١]، وقد خرجته في غير هذا الموضع مطولاً.

وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى آيَةَ النُّورِ وَقَالَ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلَ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿[النور: ٣٥].

قَالَ عَقَبَ ذَلِكَ: ﴿ فِي مَبُوتِ أَدْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا لِيَهُمْ حِجْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿[النور: ٣٦-٣٨].

وَكَذَلِكَ مَا فِي الْكُتُبِ مِنْ ظُهُورِهِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَهُوَ كَظُهُورِهِ بِطُورِ سَيْنَاءَ وَبِحَبْلِ فَارَانَ، وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يَرَهُ مُوسَى وَلَا غَيْرُهُ، لَا مُجَرَّدًا وَلَا حَالًا فِي غَيْرِهِ وَقَدْ أَخْبَرَ الْمَسِيحُ أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدًا، كَمَا أَخْبَرَ غَيْرُهُ وَذَلِكَ نَفِيَّ عَامٍّ يُوجِبُ أَنَّهُ لَا يَرَى لَا مُجَرَّدًا، وَلَا حَالًا فِي دَارِ الدُّنْيَا كَمَا قَدْ بَسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَلَابِسَةَ السَّيِّئِ أَبْلَغُ مِنْ رُؤْيِيَّتِهِ، فَإِذَا كَانَ الرَّبُّ تَعَالَى لَا يَرَاهُ نَاسُوتٌ فَإِنَّ لَا يَلَابِسُهُ نَاسُوتٌ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى وَالنَّصَارَى يَزْعُمُونَ أَنَّهُ اتَّخَذَ هُوَ وَالنَّاسُوتُ وَهَذَا أَعْظَمُ مِنَ الرَّؤْيِيَّةِ.



فَصَّلْ

تنازع اليهود والنصارى في تفسير كتبه

قَالُوا: فَمَاذَا يَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا بُرْهَانًا، وَأَقْوَى شَهَادَةً، إِذْ هَذِهِ كُتِبَ أَعْدَائُنَا الْمُخَالَفِينَ لِدِينِنَا، وَهُمْ يُقَرُّونَ بِذَلِكَ وَيَقْرَأُونَ فِي كِتَابِهِمْ، وَلَمْ يُنْكِرُوا مِنْهُ كَلِمَةً وَاحِدَةً وَلَا حَرْفًا وَاحِدًا.

وَالجَوَابُ: أَنَّ الْأَمْرَ إِذَا كَانَ عَلَى مَا قَالُوهُ مِنْ ثُبُوتِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ عَنْ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ فَلَيْسَ فِيهَا مَدْحٌ لِدِينِهِمْ بَعْدَ التَّبْدِيلِ، فَكَيْفَ بَعْدَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ؟ وَإِنَّمَا فِيهَا إِخْبَارٌ بِزَوَالِ مُلْكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبِنَسْخِ مَا نُسِخَ مِنْ شَرْعِهِمْ بِمَجِيءِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ الْمَسِيحِ وَصِدْقِهِ وَهَذَا مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.

وَالْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَهُمْ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى لِمَرْيَمَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿[الْعَنْكَبُوتُ: ٤٥-٤٦].

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّ هَذَا وَغَيْرَهُ مَوْجُودٌ فِي كُتُبِ أَعْدَائِنَا الْيَهُودِ.

فَيَقَالُ لَهُمْ لَا رَيْبَ أَنَّ الْيَهُودَ يُحَالِفُونَكُمْ فِي تَفْسِيرِ الْكُتُبِ، فَأَنْتُمْ تُفَسِّرُونَهَا بِشَيْءٍ، وَهُمْ يُفَسِّرُونَهَا بِشَيْءٍ آخَرَ وَقَدْ يَكُونُ كِلَا التَّفْسِيرَيْنِ بَاطِلًا وَحَيْثُ دُفِيَ لَكُمْ كَمَا أَنَّ كُتُبَ الْأَنْبِيَاءِ شَاهِدَةٌ لِلْمَسِيحِ وَلِدِينِهِ وَإِنْ خَالَفَتْكُمْ الْيَهُودُ فِي تَفْسِيرِهَا، فَكَذَلِكَ هِيَ شَاهِدَةٌ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتِهِ، وَإِنْ خَالَفَ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي تَفْسِيرِهَا كَمَا قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ صِفَةَ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَالْوَاجِبُ فِي الْكُتُبِ إِذَا تَنَازَعَتِ الْأُمَّةُ فِي تَفْسِيرِهَا أَنْ يَبِينَ الْحَقُّ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ
 الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ وَالْعَقْلِيُّ، وَحِينَئِذٍ تَبَيَّنَ أَنَّكُمْ فَسَّرْتُمْ كُتُبَ اللَّهِ بِأَشْيَاءٍ تُخَالِفُ مُرَادَ اللَّهِ فِي
 أَمْرِ التَّثْلِيثِ وَالْإِتِّحَادِ وَغَيْرِهِ، كَمَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ بِتَفْسِيرِ الْكُتُبِ، كَمَا قَدْ بَسُطَ فِي غَيْرِ هَذَا
 الْمَوْضِعِ.



فَضْلٌ

رد دعوى النصارى أن محمداً لم يرسل إليهم

وشكك فيما جاء به

قَالُوا: وَأَيْضًا فِي قَوْلِ هَذَا الْإِنْسَانِ يَمَّا أَتَى فِي كِتَابِهِ حَيْثُ اتَّبَعَ الْقَوْلَ أَنَّهُ لَمْ يُرْسَلْ إِلَيْنَا مَعَ تَشْكِكِهِ فِيمَا أَتَى بِهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ فِي سُورَةِ سَبَأٍ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سَبَأٌ: ٢٤].

وَأَيْضًا فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ يَقُولُ: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الْأَحْقَافُ: ٩].

وَالْجَوَابُ: أَنَّ تَقْلَهُمْ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ كَذِبٌ ظَاهِرٌ عَلَيْهِ، فَإِنَّ كِتَابَهُ مَمْلُوءٌ بِدَعْوَتِهِمْ وَأَمْرِهِ هُمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ، بَلْ وَبِعُمُومِ رِسَالَتِهِ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، بَلْ وَإِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَكَيْسَ فِيهِ قَطُّ أَنَّهُ لَمْ يُرْسَلْ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، بَلْ فِيهِ التَّضْرِيحُ بِدَعْوَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٦٤].

وَقَدْ كَتَبَ النَّبِيُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَى قَيْصَرَ مَلِكِ النَّصَارَى الَّذِي اسْمُهُ هِرَقْلٌ بِالشَّامِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ، وَتَقَدَّمَ أَيْضًا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْذَرْنَا آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يَسِينَ: ٦].

يَقْتَضِي أَنَّهُ لَمْ يُنذِرِ الْأُمِّيِّينَ، وَكَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ لَا يُنذِرُ غَيْرَهُمْ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٢١٤].

يَقْتَضِي إِنْذَارَ قَوْمِهِ وَلَا يُنَافِي أَنْ يُنذِرَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ فِي قُرَيْشٍ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قُرَيْشٍ: ٣-٤].

لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ قُرَيْشٍ مَأْمُورِينَ بِعِبَادَةِ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ، بَلْ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ الثَّقَلَيْنِ: الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَنْ يَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ سَكَتَ عَنْ مَا سَوَى الْأُمِّيِّينَ فِي هَذَا، فَيُشْعِرُ بِالنَّفْيِ بِدَلِيلِ الْخِطَابِ الَّذِي يُسَمَّى مَفْهُومَ الْمَخَالَفَةِ، قِيلَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَدُلُّ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي التَّخْصِيسِ فَائِدَةٌ سِوَى الْإِخْتِصَاصِ بِالْحُكْمِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ حُكْمَ الْمَسْكُوتِ كَحُكْمِ الْمَنْطُوقِ، وَهُنَا لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، أَمَرَهُ أَنْ يُنذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ أَوَّلًا، ثُمَّ يُنذِرَ الْعَرَبَ الْأُمِّيِّينَ ثُمَّ أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسَ وَغَيْرَهُمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَسْطُ هَذَا.



فَصَّلْ

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ مَعَ تَشْكُوكِهِ فِيمَا آتَى بِهِ فَمِنَ الكَذِبِ البَيِّنِ فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنِ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ [سَبَأًا: ٢٢-٢٦].

فَإِنَّهُ لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَبَيَّنَّ أَنَّ مَا يَدْعُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا هُوَ شَرِيكٌ، وَلَا هُوَ ظَهِيرٌ وَلَا يَنْفَعُ شَفِيعٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، نَفَىٰ بِذَلِكَ جَمِيعَ وُجُوهِ الشَّرِكِ، فَإِنَّ مَا يُشْرِكُ بِهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مُلْكٌ أَوْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، أَوْ يَكُونُ مُعِينًا، فَإِذَا انْتَفَتِ الثَّلَاثَةُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ الَّتِي هِيَ دُعَاءُ لَكَ وَمَسْأَلَةٌ وَتِلْكَ لَا تَنْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ هَذَا أَنَّهُ لَا رَازِقَ يَرْزُقُ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ دَلَّ بِهَذَا وَهَذَا عَلَى التَّوْحِيدِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَكُفُّكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٢٨﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ [الْحَجَّال: ٥٣-٥٥].

فَلَمَّا ذَكَرَ مَا دَلَّ عَلَى وُجُوبِ تَوْحِيدِهِ، وَبَيَّنَّ أَنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ هُمْ عَلَى الْهُدَىٰ، وَأَنَّ أَهْلَ الشَّرِكِ عَلَى الضَّلَالِ قَالَ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ [سَبَأًا: ٢٤].

يَقُولُ: إِنَّ أَحَدَ الْفَرِيقَيْنِ أَهْلُ التَّوْحِيدِ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَأَهْلُ الشِّرْكِ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

وَهَذَا مِنَ الْإِنْصَافِ فِي الْخِطَابِ الَّذِي كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ مِنْ وَلِيِّ وَعَدُوٍّ قَالَ لِمَنْ خُوِطِبَ بِهِ قَدْ أَنْصَفَكَ صَاحِبُكَ، كَمَا يَقُولُ الْعَادِلُ الَّذِي ظَهَرَ عَدْلُهُ لِلظَّالِمِ الَّذِي ظَهَرَ ظُلْمُهُ: الظَّالِمُ إِمَّا أَنَا وَإِمَّا أَنْتَ، لَا لِلشُّكِّ فِي الْأَمْرِ الظَّاهِرِ، وَلَكِنْ لِيَبَيِّنَ أَنَّ أَحَدَنَا ظَالِمٌ ظَاهِرٌ الظُّلْمِ، وَهُوَ أَنْتَ لَا أَنَا.

فَإِنَّهُ إِذَا قِيلَ: أَهْلُ التَّوْحِيدِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَلَى هُدًى، أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَأَهْلُ الشِّرْكِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَا لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ عَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ عَلَى الْهُدَى، وَأَهْلَ الشِّرْكِ عَلَى الضَّلَالِ، وَهَذَا بِمَا يَعْلَمُهُ جَمِيعُ الْمَلَلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، يَعْلَمُونَ أَنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ عَلَى الْهُدَى، وَأَهْلَ الشِّرْكِ عَلَى الضَّلَالِ.

وَفِي الْقُرْآنِ فِي بَيَانِ مِثْلِ هَذَا مَا لَا يُحْصَى إِلَّا بِكُلْفَةٍ، بَلْ قُطِبَ الْقُرْآنُ وَسَائِرُ الْكُتُبِ وَمَدَارُهَا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَكَيْفَ يُقَالُ إِنَّ الرَّسُولَ كَانَ يَشُكُّ هَلِ الْمُهْتَدَى هُمْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ أَمْ أَهْلُ الشِّرْكِ؟ وَهَلْ يَقُولُ هَذَا إِلَّا مَنْ هُوَ فِي غَايَةِ الْجَهْلِ وَالْعِنَادِ.

ثُمَّ الْآيَةُ خِطَابٌ لِلْمُشْرِكِينَ لَيْسَتْ خِطَابًا لِلنَّصَارَى خُصُوصًا.



فَصَلِّ

الرسول بشر لا يعلم الغيب ولا يقول إني ملك

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ)، فَلَفْظُ الْآيَةِ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنِ الرَّسُولِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أُنِجُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الْحَقَّافُ: ٩].

وَهَذَا بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الْحَقَّافُ: ٨].

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ أُنِجُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٥٠].

وَهَذَا قَالَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلَ الرَّسُولِ، وَأَمْرَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِرَ الرَّسُولِ أَنْ يَقُولَهُ، وَمِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ أُنِجُ إِلَّا بِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَلَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ① قُلْ إِنْ لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أُجِدَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحَدًا ② إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿[الْحَجَّاتُ: ٢١-٢٣].

وَهَذَا وَنَحْوُهُ يَتَضَمَّنُ اعْتِرَافَهُ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُ اللَّهِ لَا يَتَعَدَّى حَدَّ الرِّسَالَةِ وَلَا يَدْعِي المِشَارَكَةَ فِي الأُلُوهِيَّةِ، كَمَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي المَسِيحِ وَهَذَا قَالَ العَجَلَانِي: ﴿مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كُنَّا يَأْكُلَانِ الطَّلْعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا يَتَعَدَّى حَدَّ الرِّسَالَةِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [الْحَجَّاتُ: ١٤٤].

وَهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ [الْحَقَّافُ: ٩].

يَقُولُ لَسْتُ أَوَّلَ مَنْ أُرْسِلَ، أَوْ ادَّعَى الرِّسَالَةَ، بَلْ قَدْ تَقَدَّمَ قَبْلِي رُسُلٌ: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الْحَقَّافُ: ٩].

يَقُولُ لَا ادَّعَى عِلْمَ الْغَيْبِ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْذَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أَنْذَرَكُمْ بِهِ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ صِدْقِهِ وَعَدْلِهِ وَعُبودِيَّتِهِ لِلَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَتَمَيُّزِ مَا يَسْتَحِقُّهُ الْخَالِقُ وَحَدُّهُ مِمَّا يَسْتَحِقُّهُ الْعَبْدُ، فَإِنَّ الْعِلْمَ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ عَلَىٰ وَجْهِ التَّفْصِيلِ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ، فَلَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الرَّسُولِ أَنْ يَعْلَمَ كُلَّ مَا يَكُونُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾، نَفْيٌ لِعِلْمِهِ بِجَمِيعِ مَا يُفْعَلُ بِهِ وَبِهِمْ وَهَذَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهَذَا لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِأَنَّهُ سَعِيدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَدْرِ تَفَاصِيلَ مَا يَجْرِي لَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَحَنِّ وَالْأَعْمَالِ، وَمَا يَتَجَدَّدُ لَهُ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَمَا يُكْرَمُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَصْنَافِ النَّعِيمِ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ » (١)، وَأَيْضًا هَذَا مَأْثُورٌ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَلَا مِنْ شَرْطِ النَّبِيِّ أَنْ يَعْلَمَ حَالَ الْمُخَاطَبِينَ: مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرُ، وَتَفْصِيلَ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، هَذَا إِنْ قِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مَا نَفِيَّ فِيهَا، وَإِنْ قِيلَ إِنَّهُ أَعْلَمَ بِذَلِكَ فَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُعْلَمْهُ بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً، بَلْ أَعْلَمَهُ بِالْأُمُورِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ.

(١) أخرجه البخاري [٣٢٤٤]، [٤٧٧٩]، ومسلم [٢٨٢٤] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد خرجته مطولاً في «النهاية في الفتن والملاحم» للعماد ابن كثير رحمه الله، فأغني عن الإعادة.

وَقَدْ قَالَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝۱ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝۲ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا﴾ [التَّحْقِيقُ: ١-٣].

وَقَالَ النَّجَالِيُّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [التَّحْقِيقُ: ٢٨].

وَفِي الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْإِخْبَارِ بِمَا سَيَكُونُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ أَضْعَافٌ أَضْعَافٍ مَا يُوجَدُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، حَتَّى إِنَّهُ يُنَبِّئُ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ مَا يَبِينُ مِنَ السَّنِينَ خَبْرًا أَكْمَلَ مِنْ خَبْرٍ مِنْ عَايِنَ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا التُّرُكَ صِغَارَ الْأَعْيُنِ، ذُلْفَ الْأَنْوْفِ، حُمْرَ الْخُدُودِ، يَتَتَعَلُّونَ الشَّعْرَ، كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَفَةُ، فَمَنْ رَأَى هَؤُلَاءِ التُّرُكَ (١) الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ حِينَ خَرَجَ جَنْكُزُ خَانَ (٢) مَلِكُهُمُ الْأَكْبَرُ وَأَوْلَادُهُ وَأَوْلَادُ أَوْلَادِهِ، مِثْلُ هَؤُلَاءِ (٣) وَغَيْرِهِ مِنْ مُلُوكِ التُّرُكَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، لَمْ يَحْسُنْ أَنْ يَصِفَهُمْ بِأَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ.

(١) يقصد بالترك: المغول القادمين من أواسط آسيا، وليس الأتراك المنسوين إلى تركيا المعروفة الآن في شمال الشام.

(٢) جنكز خان: هو قائد مغولي اسمه الأصلي «تيموجين» خلف أباه «يقوصاي» رئيسًا للتحالف المغولي. ذكر ابن كثير أن ابتداء حكمه سنة ٥٥٩هـ، ووفاته كانت سنة ٦٢٤هـ، وهو والد ملوك التتار، وينسبون إليه.

(٣) هولاكو خان: قائد مغولي حفيد «جنكز خان» وأحد ملوك التتار، والعامية يسمونه هولاوون، وكان جبارًا فاجرًا قتل من المسلمين ما لا يحصى عدده. وهو الذي دخل بغداد وخربها وقتل الخليفة سنة ٦٥٦هـ، مات سنة ٦٦٤هـ، وقيل ٦٦٣هـ.

وَقَدْ أَخْبَرَ بِهَذَا قَبْلَ ظُهُورِهِ بِأَكْثَرِ مِنْ سِتِّمِائَةِ سَنَةٍ، وَقَوْلِهِ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ لَهَا أَعْنَاقُ الْإِبِلِ بِبُصْرَى»^(١)، وَهَذِهِ النَّارُ ظَهَرَتْ سَنَةَ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ بِأَرْضِ الْحِجَازِ، فَكَانَتْ تَحْرِقُ الْحَجَرَ وَلَا تُنْضِجُ اللَّحْمَ، وَرَأَى أَهْلُ بُصْرَى أَعْنَاقَ الْجِمَالِ مِنْ ضَوْءِ تِلْكَ النَّارِ، وَكَانَتْ مُنْذِرَةً بِمَا يَكُونُ بَعْدَهَا، فَفِي سَنَةِ سِتِّ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ دَخَلَ هُوَ لَا كُوفًا مَلِكُ الْكُفَّارِ بَغْدَادَ، وَقَتَلَ فِيهَا مَقْتَلَةً عَظِيمَةً مَشْهُورَةً (وَسَيَاتِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بَعْضُ أَخْبَارٍ أَنَّهُ شَاهَدَ النَّاسُ وُقُوعَهَا كَمَا أَخْبَرْنَا عِنْدَ ذِكْرِنَا مُعْجَزَاتِهِ).



(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، وخرجه مطولاً بطرقه في «النهاية في الفتن» لابن كثير، وهو مطبوع بمعرفة دار البصيرة.

فَصَلِّ

ثُمَّ قَالُوا: مَعَ الْأَمْرِ لَهُ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ أَنْ يَسْأَلَ الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ،
صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ، فَإِنَّهُ عَنِ يَقُولِهِ: الْمُنْعَمِ
عَلَيْهِمْ وَالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ الثَّلَاثُ أُمَّمٍ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَصْرِهِ، وَهُمْ: النَّصَارَى،
وَالْيَهُودُ وَعِبَادُ الْأَصْنَامِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِهِ غَيْرَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثِ أُمَّمٍ.

فَالْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ نَحْنُ النَّصَارَى وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ فَلَا - يُشَكُّ أُمَّمٌ - الْيَهُودُ، الَّذِينَ
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي كُتُبِ التَّوْرَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَهَذَا الْكِتَابِ، وَالضَّالِّينَ فَهُمْ عِبَادُ الْأَصْنَامِ
الَّذِينَ ضَلُّوا عَنِ اللَّهِ، فَهَذَا أَمْرٌ وَاضِحٌ بَيِّنٌ ظَاهِرٌ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَا سِيَّما عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ
وَالْمَعْرِفَةِ وَالصِّرَاطُ: هُوَ الْمَذْهَبُ، أَيِ الطَّرِيقِ، وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ رُومِيَّةٌ، لِأَنَّ الطَّرِيقَ بِالرُّومِيَّةِ
اسْطَرِاطًا.

وَالجَوَابُ:

أَمَّا قَوْلُهُمْ: الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ نَحْنُ النَّصَارَى، فَمِنَ الْعَجَائِبِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى فَرْطِ جَهْلِ
صَاحِبِهَا، وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: إِنَّ هَذَا شَيْءٌ بَيِّنٌ وَاضِحٌ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ، لَا سِيَّما عِنْدَ
ذَوِي الْعُقُولِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَيَا سُبْحَانَ اللَّهِ!

أَلَمْ يَعْرِفِ الْعَامُ وَالْخَاصُّ عِلْمًا ضَرُورِيًّا لَا تُمْكِنُ الْمُنَازَعَةُ فِيهِ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ،
وَدِينِ أُمَّتِهِ الَّذِي تَلَقَّوهُ عَنْهُ مِنْ تَكْفِيرِ النَّصَارَى وَتَجْهِيلِهِمْ وَتَضْلِيلِهِمْ وَاسْتِحْلَالِ جِهَادِهِمْ
وَسَبِي حَرِيْبِهِمْ وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ، مَا يَنَاقِضُ كُلَّ الْمُنَاقِضَةِ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ
يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اهْدِنَا صِرَاطَ النَّصَارَى.

وَهَلْ يَنْسِبُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتَهُ إِلَى أُمَّتِهِمْ فِي كُلِّ صَلَاةٍ يَطْلُبُونَ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَهْدِيَهُمْ صِرَاطَ النَّصَارَى إِلَّا مَنْ هُوَ مِنْ أَكْذَابِ الْكَاذِبِينَ وَأَعْظَمِ الْخَلْقِ افْتِرَاءً وَوَقَاحَةً وَجَهْلًا وَضَلَالًا؟

وَلَوْ كَانُوا يَسْأَلُونَ اللَّهَ هِدَايَةَ طَرِيقِ النَّصَارَى، لَدَخَلُوا فِي دِينِ النَّصَارَى، وَلَمْ يُكْفَرُوا وَهُمْ وَيُقَاتِلُوهُمْ، وَيَضَعُوا عَلَيْهِمُ الْحِزْبَةَ الَّتِي يُؤَدُّونَهَا عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ، وَلَمْ يَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ بِأَتَمِّهِمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَأُمَّتُهُ أَخَذُوا ذَلِكَ جَمِيعُهُ عَنْهُ مَنْقُولًا عَنْهُ بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ بِاجْمَاعِهِمْ، لَمْ يَبْتَدِعُوا ذَلِكَ، كَمَا ابْتَدَعَتِ النَّصَارَى مِنَ الْعَقَائِدِ وَالشَّرَائِعِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، فَلَا يَلَامُ الْمُسْلِمُونَ فِي اتِّبَاعِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ الَّذِي جَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى.

وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ كَانَ رَسُولًا صَادِقًا، فَقَدْ كَفَرَ النَّصَارَى، وَأَمَرَ بِجِهَادِهِمْ، وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ وَمِنْ دِينِهِمْ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا لَمْ يُقْبَلْ شَيْءٌ مِمَّا نَقَلَهُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِكُ ثَلَاثَةٍ﴾ [الْمَائِدَةَ: ٧٣].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [الْمَائِدَةَ: ٧٢].

﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ابْنُ مَرْيَمَ وَإِنَّا مُّشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَةَ: ٣٠-٣١].

فَمَنْ يَقُولُ عَنِ النَّصَارَى مِثْلَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ هَلْ يَأْمُرُ أُمَّتَهُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ يَقُولُوا:

اهْدِنَا طَرِيقَهُمْ؟

ثُمَّ يُقَالُ: أَيُّ شَيْءٍ فِي الْآيَةِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، هُمْ

النَّصَارَى؟

وَأَمَّا الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ هُمُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فَهُؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَسْأَلُوا هِدَايَةَ صِرَاطِهِمْ.

وَأَمَّا النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ قَبْلَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ فَهُمْ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، كَمَا أَنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى دِينِ مُوسَى قَبْلَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ كَانُوا مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا النَّصَارَى بَعْدَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ فَهُمْ مِنَ الضَّالِّينَ، لَا مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا قَالَ النَّجَّالِيُّ: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وَقَالَ النَّجَّالِيُّ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونََنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٣٨].

وَعِبَادُ الْأَصْنَامِ مِنَ الضَّالِّينَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ»^(١) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

(١) أخرجه أحمد (٣٧٨/٤ - ٣٧٩) وابن أبي حاتم في «التفسير» [٤٠] وابن حبان [٦٢٤٦] والطبراني (٢٣٧/١٧) وأبو نعيم في «الحلية» (١٧٠/٧) والبيهقي في «الدلائل» (٣٣٩/٥ - ٣٤٠) والمزي في «تهذيب الكمال» ترجمة عباد بن حبيش من طريق الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال: سمعت سماك بن حرب قال: سمعت عباد بن حبيش يحدث عن عدي بن حاتم، به مطولاً. والإسناد رجاله ثقات عدا عباد بن حبيش لم يرو عنه غير سماك ولم يوثقه إلا ابن حبان، وقال الذهبي في «الميزان» لا يعرف.

وأخرجه الترمذي [٢٩٥٤] والطبري [١٩٤] [٢٠٨] وابن حبان [٧٢٠٦] [٧٣٦٥] والطبراني في «الكبير» (٢٣٧/١٧) من طريق محمد بن جعفر، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ولا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب. =

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ، وَالنَّصَارَى يَعْبُدُونَ بِلَا عِلْمٍ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الْيَهُودَ بِأَعْمَالٍ، وَالنَّصَارَى بِأَعْمَالٍ، فَوَصَفَ الْيَهُودَ بِالْكِبْرِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَالْقَسْوَةِ وَكِتْمَانِ الْعِلْمِ وَسُلُوكِ سَبِيلِ الْغَيِّ وَهُوَ سَبِيلُ الشَّهَوَاتِ وَالْعُدْوَانِ.

وَذَكَرَ عَنِ النَّصَارَى الْغُلُوبَ وَالْبِدْعَ فِي الْعِبَادَاتِ وَالشِّرْكَ وَالضَّلَالَ وَالسِّخْلَالَ وَمَحَارِمَ اللَّهِ، فَقَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً^{٢٧} أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ^{٢٨} وَحَدُّ سَبْحَتَهُ^{٢٩} أَنْ يَكُونَ لَهُ، وَلَدٌ لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا^{٣٠} لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا^{٣١} فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا^{٣٢} وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا^{٣٣}﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

وَقَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارَعُوهَا

حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

= وأخرجه الترمذي [٢٩٥٣] وابن أبي حاتم في «تفسيره» [٤١] من طريق عمرو بن أبي قيس، والطبراني في «الكبير» (١٧/٢٣٦) من طريق قيس بن الربيع وهو ضعيف، كلاهما عن سناك، به. لكن محل الشاهد المذكور، تابع عليه عباد بن حبيش، الشعبي، فرواه الطبري في «تفسيره» [١٩٣]، [٢٠٧]، وكذلك مُرِّي بن قطري، فرواه الطبري [١٩٥]، [٢٠٩] كلاهما عن عدي، به. والشعبي معروف، ولكن مُرِّي بن قطري مجهول، فالقدر المذكور في الكتاب بهذه المتابعات حسن إن شاء الله.

أَيُّ: لَكِنْ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَمْ نَكْتُبْ عَلَيْهِمُ الرَّهْبَانِيَّةَ ^(١)، بَلْ هُمْ ابْتَدَعُوهَا وَمَعَ ابْتِدَاعِهِمْ إِيَّاهَا فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ فَهُمْ مَذْمُومُونَ عَلَى ابْتِدَاعِ الرَّهْبَانِيَّةِ وَعَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَرَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا.

وَأَمَّا مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ مِنْ ابْتِغَاءِ رِضْوَانِ اللَّهِ فَيَحْصُلُ بِفِعْلِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَرْضَاهُ، وَمَنْ فَعَلَ مَا يَرْضَاهُ اللَّهُ فَقَدْ فَعَلَ مَا كُتِبَ عَلَيْهِ، وَيَحْصُلُ رِضْوَانُ اللَّهِ أَيْضًا بِمَجْرَدِ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي كُتِبَ عَلَى الْعِبَادِ، فَإِذَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءُ رِضْوَانِ اللَّهِ كَانَ ابْتِغَاءُ رِضْوَانِهِ وَاجِبًا، فَمَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ لَا يُشْتَرَطُ فِي حُصُولِ مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ.

وَلِهَذَا ضَعَّفَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرْوَانَ: «أَوَّلُ الْوَقْتِ رِضْوَانُ اللَّهِ وَآخِرُهُ عَفْوُ اللَّهِ» ^(٢)، فَإِنَّ مَنْ صَلَّى فِي آخِرِ الْوَقْتِ كَمَا أَمَرَ فَقَدْ فَعَلَ الْوَاجِبَ، وَبِذَلِكَ يَرْضَى اللَّهُ عَنْهُ وَإِنْ كَانَ فِعْلُ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَالْمُسَابِقَةِ إِلَى الطَّاعَاتِ أَبْلَغَ فِي إِرْضَاءِ اللَّهِ، وَيَحْصُلُ لَهُ

(١) الرهبانية: يقصد بها الانقطاع عن ملذات الحياة والزهد فيها وترك أكثر المباحات وبخاصة الزواج انقطاعاً للعبادة في الأديرة، وتطورت الرهبنة بعد ذلك وأصبح لها نظم وتعليمات من أبرزها الطاعة التامة للأب رئيس الدير، ولكن حصل هناك جوانب سيئة في الأديرة من الرهبان والراهبات وفساد أخلاقي بمعرفة الكهنة والآباء المسيحيين.

(٢) باطل: رواه الترمذي [١٧٢]، والدارقطني (١/٢٤٩-٢٥٠)، والبيهقي (١/٤٣٥) وفي سننه يعقوب بن الوليد واه، نقل البيهقي عن ابن عدي قال: «هذا الحديث بهذا الإسناد باطل»، ثم قال البيهقي: «هذا حديث يعرف بيعقوب بن الوليد المدني، ويعقوب منكر الحديث، ضعفه يحيى بن معين، وكذبه أحمد بن حنبل وسائر الحفاظ ونسبوه إلى الوضع. نعوذ بالله من الخذلان. وقد روي بأسانيد أخر كلها ضعيفة». اهـ.

وراجع «بلوغ المرام» للحافظ ابن حجر (١٥٩، ١٦٠)، و«سبل السلام» ج١ ص [١٧٤] ط. دار الحديث، و«كشف المغطى في تبيين الصلاة الوسطى» للحافظ الدمياطي رحمه الله ص [١١٧]، وتعليق العلامة أبي الأشبال أحد بن محمد شاكر (قدس الله روحه ونور ضريحه) على الحديث رقم [١٧٢] من «سنن الترمذي».

بِذَلِكَ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ وَحُبِّهِ مَا لَا يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ الْوَاجِبَاتِ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَعَيزُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَانِي بِالْمَحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ آذَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي فَلَمَّا سَأَلَنِي لِأَعْظِيئَتِهِ، وَلَمَّا اسْتَعَاذَ بِي لِأَعِيدَتِهِ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ رُوحِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ» (١).

فَقَوْلُهُ: «حَتَّى أُحِبَّهُ» يُرِيدُ الْمَحَبَّةَ الْمُطْلَقَةَ الْكَامِلَةَ، وَأَمَّا أَصْلُ الْمَحَبَّةِ: فَهِيَ حَاصِلَةُ بِنْفَعْلِ الْوَاجِبَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَمَنْ آذَى الْوَاجِبَاتِ فَهُوَ مِنَ الْمُتَّقِينَ الْمُقْسِطِينَ.

وَقَالَ الْعَالِي فِيهِمْ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالُوا كُنَّا نُؤْتِيهِمْ آيَاتِنَا فَكُفَرُوا بِهَا﴾ [٣٠] أُنْخَذُوا أَحْبَارُهُمْ وَرُهْبَانُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. ﴿

[التوبة: ٣٠-٣١]

وَقَالَ الْعَالِي: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

(١) أخرجه البخاري [٦٥٠٢] عن أبي هريرة وقد سبق تخريجه.

وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - حَاطَبَ النَّصَارَى بِهَذَا لِأَنَّ النَّصَارَى يَعْتَمِدُونَ فِي دِينِهِمْ عَلَى مَا يَقُولُهُ كِبْرًا وَهُمْ الَّذِينَ وَضَعُوا هُتَمَ الْقَوَانِينِ وَالنَّوَامِيسِ وَيُسَوِّغُونَ لِأَكَابِرِهِمُ الَّذِينَ صَارُوا عِنْدَهُمْ عَظَمَاءَ فِي الدِّينِ أَنْ يَضَعُوا هُتَمَ شَرِيعَةً وَيَنْسَخُوا بَعْضَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ، لَا يَرُدُّونَ مَا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ مِنْ دِينِهِمْ إِلَى اللَّهِ وَرُسُلِهِ، بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُونَ أَحَدًا مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ كَالْتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَعَنِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الْمَسِيحُ، وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَلِهَذَا قَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [المائدة: ٦٨].

بَلْ مَا وَضَعَهُ هُتَمَ أَكَابِرُهُمْ مِنَ الْقَوَانِينِ الدِّينِيَّةِ وَالنَّوَامِيسِ الشَّرْعِيَّةِ بَعْضُهَا يَنْقُلُونَهُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعْضُهَا عَنِ الْحَوَارِيِّينَ، وَكَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ مَنْقُولًا، لَا عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا عَنِ الْحَوَارِيِّينَ، بَلْ مِنْ وَضَعِ أَكَابِرِهِمْ وَابْتِدَاعِهِمْ.

كَمَا ابْتَدَعُوا هُتَمَ الْأَمَانَةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ عَقِيدَتِهِمْ، وَابْتَدَعُوا هُتَمَ الصَّلَاةِ إِلَى الشَّرْقِ، وَابْتَدَعُوا هُتَمَ تَحْلِيلِ حَمِّ الْخِنْزِيرِ، وَسَائِرِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَابْتَدَعُوا هُتَمَ الصَّوْمِ وَقَتَ الرَّبِيعِ، وَجَعَلُوهُ خَمْسِينَ يَوْمًا، وَابْتَدَعُوا هُتَمَ أَعْيَادِهِمْ، كَعِيدِ الصَّلِيبِ، وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَعْيَادِ.

وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ لَمَّا سَمِعَهُ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

فَقَالَ: لِمَ يَعْبُدُوهُمْ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُمْ أَحَلَّوْا لَهُمُ الْحَرَامَ فَأَطَاعُوهُمْ، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ فَأَطَاعُوهُمْ، فَكَانَتْ تِلْكَ عِبَادَتِهِمْ» (١).

وَلِهَذَا قَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

(١) خرجته مطولاً في «السيرة النبوية» لابن هشام، وراجع الترمذي [٥٠٩٣].

فَاتَّبَعَهُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَ أَكْبَرِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ، وَأُولَئِكَ ضَلُّوا مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ وَأَضَلُّوا أَتْبَاعَهُمْ، وَهُمْ كَثِيرُونَ، وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَهُوَ وَسَطُ السَّبِيلِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، فَإِنْ كَانُوا هُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ضَالِّينَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَأْمُرَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَسْأَلُوهُ أَنْ يَهْدِيَهُمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَيَعْنِي بِهِ صِرَاطَ هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ الْمُضِلِّينَ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ.

وَقَدْ قَالَ - سُبْحَانَهُ -: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ﴾ هَؤُلَاءِ لِأَنَّ أَضْلَ ابْتِدَاعِهِمْ هَذِهِ الْبِدْعَةَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَعَ ظَنٍّ كَاذِبٍ، فَكَانُوا مِنْ قَبْلِ فِيهِمْ: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [الجنَّة: ٢٣].

وَمِنْ قَبْلِ فِيهِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [التَّحْوِيلُ: ٥٠].

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَسِيحَ ﷺ لَمَّا رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ وَعَادَاهُ الْيَهُودُ، وَعَادَوْا أَتْبَاعَهُ عِدَاوَةً شَدِيدَةً، وَبَالَغُوا فِي آذَانِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ وَطَلَبِ قَتْلِهِمْ وَنَفْيِهِمْ، صَارَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ بَعْضِ الْيَهُودِ، وَطَلَبِ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ مَا لَا يُوصَفُ، فَلَمَّا صَارَ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَمُلْكٌ مِثْلَ مَا صَارَ لَهُمْ فِي دَوْلَةِ قُسْطَنْطِينِ، صَارُوا يُرِيدُونَ مُقَابَلَةَ الْيَهُودِ.

كَمَا جَرَّتِ الْعَادَةُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ بَيْنَ الطَّوَائِفِ الْمُتَقَابِلَةِ الْمُتَنَازِعِينَ فِي الْمُلْكِ، وَالْمُتَنَازِعِينَ فِي الْبِدْعِ كَالْحَوَارِجِ، وَالرَّوَافِضِ (١)، وَالْجَبْرِيَّةِ مَعَ الْقَدْرِيَّةِ (٢) وَالْمُعْطَلَةِ مَعَ الْمُمَثَّلَةِ، وَكَالدَّوْلَتَيْنِ الْمُتَنَازِعَتَيْنِ عَلَى الْمُلْكِ وَالْأَهْوَاءِ بِمَنْزِلَةِ قَيْسِ (٣) وَيَمَنِ (٤)، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

(١) الروافض: فرقة من الشيعة، وقد سموها بهذا الاسم لأنهم رفضوا اتباع زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب لما خالف رأيهم في سب أبي بكر وعمر، ومذهبهم حصر الإمامة في علي وذريته، وبغض من عداهم من الصحابة، وخاصة الشيخين عليهما السلام.

(٢) القدرية: طائفة من الفرق الإسلامية وهي ضد الجبرية، ويقولون بإنكار القدر وأن الإنسان يخلق فعل نفسه، ويقال: إن أول من أعلن ذلك معبد الجهني وغيلان الدمشقي.

(٣) قيس: شعب عظيم ينتسب إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وغلب اسم قيس على سائر العدنانيين.

(٤) يمن: عرب اليمن وما عداهم يعرف بقيس ويقال في المثل قيس ويمن.

إِذَا ظَهَرَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْأُخْرَى بَعْدَمَا آذَتْهَا الْأُخْرَى وَانْتَقَمَتْ مِنْهَا تُرِيدُ أَنْ تَأْخُذَ بِثَأْرِهَا، وَلَا تَقِفَ عِنْدَ حَدِّ الْعَدْلِ، بَلْ تَعْتَدِي عَلَى تِلْكَ كَمَا اعْتَدَتْ تِلْكَ عَلَيْهَا.

فَصَارَ النَّصَارَى يُرِيدُونَ مُنَاقَصَةَ الْيَهُودِ فَأَحَلُّوا مَا يُحَرِّمُهُ الْيَهُودُ كَالْحِنْزِيرِ وَغَيْرِهِ، وَصَارُوا يَمْتَحِنُونَ مَنْ دَخَلَ فِي دِينِهِمْ بِأَكْلِ الْحِنْزِيرِ، فَإِنْ أَكَلَهُ وَإِلَّا لَمْ يَجْعَلُوهُ نَصْرَانِيًّا.

وَتَرَكُوا الْحِتَانَ ^(١)، وَقَالُوا: إِنَّ الْمَعْمُودِيَّةَ ^(٢) عَوْضٌ عَنْهُ، وَصَلَّوْا إِلَى قِبْلَةٍ غَيْرِ قِبْلَةِ الْيَهُودِ ^(٣).

(١) الحتان: هو إزالة القلفة من ذكر الرجل، وهي عادة قديمة جداً عند الشعوب السامية، وأول من اختن إبراهيم عليه السلام، واليهود يختنون لأن التوراة نصت على ذلك في سفر التكوين الإصحاح السابع عشر بما يلي: (١٠) - هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك يختن منكم كل ذكر).

وكان المسيح مختوناً على سنة الرسل قبله، ورد في إنجيل برنابا الفصل الخامس (فلما تمت الأيام الثانية حسب شريعة الرب، كما هو مكتوب في كتاب موسى، أخذوا الطفل واحتملاه إلى الهيكل ليختناه فختن الطفل وسمياه يسوع).

(٢) التعميد: من شعائر المسيحية، وكان موجوداً عند اليهود فكان يحيى المعمدان بن زكريا يعمد الناس في نهر الأردن، والتعميد يكون برش الماء على الجبهة أو غمس جزء من الجسم بالماء، وأحياناً يغمس الشخص كله في الماء، ولا بد أن يقوم بذلك كاهن يعمد الشخص باسم الأب والابن وروح القدس، وهم يشيرون بذلك إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم المسيح. انظر: «تاريخ الأقباط» لزكي شنودة ص [٨]؛ و«المسيحية» للدكتور / أحمد شلبي ص [١٦٨]، ط. [٧].

وقد حدثني شخص من النصارى بمصر - وقد أسلم والحمد لله - عندما سألته عن التعميد فقال: إنهم علمونا أن الطفل إذا لم يعمد يصير مسلماً.

فذكرني هذا بحديث الرسول ﷺ: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه...» الحديث.

(٣) قبلة اليهود: بيت المقدس. وقبلة النصارى التي صلوا إليها المشرق مطلع الشمس. انظر: «إغاثة اللفهان» (٢/ ٢٨٥).

وَكَانَ الْيَهُودُ قَدْ أَسْرَفُوا فِي دَمِّ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ وَلَدُ زَنَا، وَأَنَّهُ كَذَّابٌ

سَاحِرٌ.

فَعَلُوا هَؤُلَاءِ فِي تَعْظِيمِ الْمَسِيحِ، وَقَالُوا: إِنَّهُ اللَّهُ وَابْنُ اللَّهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، وَصَارَ مَنْ يَطْلُبُ أَنْ يَقُولَ فِيهِ الْقَوْلَ الْعَدْلَ مِثْلَ كَثِيرٍ مِنْ عُلَمَائِهِمْ وَعِبَادِهِمْ، يَجْمَعُونَ لَهُ جَمْعًا وَيَلْعَنُونَهُ فِيهِ عَلَى وَجْهِ التَّعَصُّبِ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، وَالْعُلُوِّ فَيَمَنُّ يُعَظِّمُونَهُ، كَمَا يَجْرِي مِثْلُ ذَلِكَ لِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ، كَالْفَلَاةِ فِي بَعْضِ الْمَشَايخِ، وَبَعْضِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَبَعْضِ الْعُلَمَاءِ وَبَعْضِ الْمُلُوكِ، وَبَعْضِ الْقَبَائِلِ وَبَعْضِ الْمَذَاهِبِ، وَبَعْضِ الطَّرَائِقِ، فَإِنَّمَا كَانَ مَصْدَرُ صَلَاتِهِمْ أَهْوَاءَ نَفْسِهِمْ، قَالَ الْعَالِمُ لِلنَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا فِي وَقْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّ الصَّرَاطَ هُوَ الْمَذْهَبُ أَيِ الطَّرِيقِ، وَهَذِهِ لَفْظَةٌ رُومِيَّةٌ لِأَنَّ الطَّرِيقَ بِالرُّومِيَّةِ اسْطِرَاطًا.

فَيَقَالُ لَهُمْ: الصَّرَاطُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: هُوَ الطَّرِيقُ، يُقَالُ: هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، وَيُقَالُ: هُوَ الطَّرِيقُ الْمَحْدُودُ بِجَانِبَيْنِ الَّذِي لَا يَخْرُجُ عَنْهُ، وَمِنْهُ الصَّرَاطُ الْمَنْصُوبُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي يَعْبُرُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِذَا عَبَرَ عَلَيْهِ الْكُفَّارُ سَقَطُوا فِي جَهَنَّمَ، وَيُقَالُ فِيهِ: مَعْنَى الْإِسْتَوَاءِ وَالْإِعْتِدَالِ الَّذِي يُوجِبُ سُرْعَةَ الْعُبُورِ عَلَيْهِ، وَفِيهِ ثَلَاثُ لُغَاتٍ، هِيَ ثَلَاثُ قِرَاءَاتٍ: الصَّرَاطُ، وَالسَّرَاطُ، وَالزَّرَاطُ، وَهِيَ لُغَةٌ عَرَبِيَّةٌ عَرَبَاءُ لَيْسَتْ مِنَ الْمُعَرَّبِ، وَلَا مَأْخُودَةٌ مِنْ لُغَةِ الرُّومِ كَمَا زَعَمُوا.

وَيُقَالُ: أَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: سَرَطْتُ الشَّيْءَ أَسْرَطُهُ سَرَطًا، إِذَا ابْتَلَعْتَهُ وَاسْتَرَطْتَهُ ابْتَلَعْتَهُ، فَإِنَّ الْمُبْتَلَعَ يَجْرِي بِسُرْعَةٍ فِي مَجْرَى مَحْدُودٍ.

وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ: لَا تَكُنْ حُلُومًا فَتُسْتَرَطَّ، وَلَا مُرًّا فَتُعْفَى، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَعْفَيْتَ الشَّيْءَ، إِذَا أَرَزَلْتَهُ مِنْ فَيْكٍ لِمَرَاتِهِ، وَيُقَالُ: فَلَانٌ يَسْتَرَطُّ مَا يَأْخُذُ مِنَ الدِّينِ.

وَحَكَى يَعْقُوبُ بْنُ السَّكَيْتِ ^(١): الْأَخْذُ سَرِيطٌ، وَالْقَضَاءُ ضَرِيطٌ، وَالسَّرَطَاطُ: الْفَالَوْدَجُ، لِأَنَّهُ يُسْتَرَطُّ اسْتِرَاطًا، وَسَيْفٌ سِرَاطِيٌّ، أَيُّ قَاطِعٌ فَإِنَّهُ مَاضٍ سَرِيْعٌ الْمَذْهَبِ فِي مَضْرِبِهِ.

فَالصَّرَاطُ: هُوَ الطَّرِيقُ الْمَحْدُودُ الْمُعْتَدِلُ الَّذِي يَصِلُ سَالِكُهُ إِلَى مَطْلَبِهِ بِسُرْعَةٍ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ لَفْظَ الصَّرَاطِ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَلَمْ يُسَمِّ اللَّهُ سَبِيلَ الشَّيْطَانِ سِرَاطًا، بَلْ سَمَّاهَا سُبُلًا، وَخَصَّ طَرِيقَهُ بِاسْمِ الصَّرَاطِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وَفِي السُّنَنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، وَخَطَّ خَطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ وَهَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ أَجَابِهِ قَذْفُهُ فِي النَّارِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ^(٢).

فَسَمَّى - سُبْحَانَهُ - طَرِيقَهُ صِرَاطًا، وَسَمَّى تِلْكَ سُبُلًا، وَلَمْ يُسَمِّهَا صِرَاطًا كَمَا سَمَّاهَا سَبِيلًا، وَطَرِيقَهُ يُسَمِّيهِ سَبِيلًا كَمَا يُسَمِّيهِ صِرَاطًا.

(١) هو يعقوب بن إسحاق أبو يوسف بن السكيت إمام في اللغة والأدب أصله من خوزستان تعلم ببغداد، وكان مؤدب أولاد المتوكل الذي جعله في عداد ندمائه ثم قتله.

(٢) حديث حسن. أخرجه الطيالسي [٢٤٤] وأحمد [٤١٤٢] والدارمي (١/٦٧) وابن أبي عاصم في «السنة» [١٧] والنسائي «كبرى» [١١١٧٤] والبيزار [٢٢١٠] «زوائد»، والطبري في «تفسيره» [١٤١٦٨] والشاشي [٥٣٦]، [٥٣٧] وابن حبان (٦، ٧) والحاكم (٢/٣٢٨) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٦٣) من طريق حماد بن زيد عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن ابن مسعود، به. وإسناده حسن لأجل عاصم.

وَقَالَ الْعَجَلِيُّ: عَنْ مُوسَى وَهَارُونَ: ﴿وَأَيْنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَيِّنَ ﴿١٧﴾ وَهَدَيْتَهُمَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٧-١١٨﴾ [الصَّافَاتُ].

وَقَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١٠﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتَذَكَّرَ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١١﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿١٢﴾ [الْفَتْحُ: ١-٣].

وَهَذِهِ الْهَدَايَةُ الْخَاصَّةُ الَّتِي أَعْطَاهُ إِيَّاهَا بَعْدَ فَتْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ أَحْصَى مِمَّا تَقَدَّمَ فَإِنَّ السَّالِكَ
إِلَى اللَّهِ لَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ، وَيَزِيدُهُ اللَّهُ هُدًى بَعْدَ هُدًى، وَأَقْوَمُ الطَّرِيقِ
وَأَكْمَلُهَا الطَّرِيقُ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ بِهَا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿كَمَا قَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ
يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾ [الْأَنْعَامُ: ٩٩].

